



(هذا زمن نحن فيه كالسمك
ياكل كباره الصفار . . .)

كان رجل يحنى ظهره الضعفاً هارماً يقطع الطريق بين
مستشفى المنصورة النائي وبين تفتيش الصحة الواقع في الطرف
الآخر من المدينة ، يقطعه مضطرباً مهزولاً بمقدار ما سمح له
الشيخوخة الكليّة ، ويهذى بهو سائر بجمل والفاظ لا معنى
لها ، وترتعد اوصاله بلا ضبط ، وتشخص عيناه الحمران في
انقضاء ، وقد بدا من تشوش ملابسه النظيفة انه ارتداها على
عجل وهو لا يدري ما يصنع

كان في الواقع اشبه ما يكون بمجنون ولا ادري كيف كان
يستطيع ان يتجنب اخطار الطريق . . .

وكنت جالسا في احد مقاهي الكرنيش الاخضر الجميل الذي
يزين اعطاف انيل عند المنصورة ويؤلف الاعتراف الوحيد بما
ينبغي من تكريم لهذا النهر المنعم الوهاب منذ ان يرح
القناطر الخيرية الى ان يصل الى دمياط .

اخذ الرجل يذهب ويجيء ، ولا تبدو عليه في كل مرة اية
لمحة من لمحات المكروب الذي يتاح له باب للفرج من الكرب
والضيق

وبعد ان رأته في ساعتين اربع مرات اخذت اترقبه في الخامسة
حتى اذا اقبل اعترضته في الطريق ، وقلت له : « يا عم :

ان الثورة لاتحل مشكلا ، والحزن لا يدفع بلاء ، وخير لك ان تهدأ
فان الهدوء خليق ان يجلو افكرو ويبدد الحيرة والظلام »

وخيل لى من اليسر الذى تقبل به دعوتى اياه للجلوس ،
بعد نظرة طويلة صامتة احوانى بها ، انه كان فى أمس الحاجة الى
شخص ، أى شخص ، يكلمه ، ويبشبه حزنه ، ويفضى اليه بما
آده من هموم ، فاندفع يتحدث الى بلا مقدمات ، ويداه تختلجان
على مقبض عصاه اختلاج عصب محطم

« ابنى . . . ابنى الوحيد اخذود منى ! »

قلت : « من الذى اخذه . . الجيش ؟ »

قل : « ياليت ! فانه مازال فى الخامسة عشرة ، لقد اخذوه

الى مستشفى المجازيب ! »

واسند الرجل جبينه على يديه فوق العصا وراح ينشج
نشيج الاطفال

قلت : « لعله مريض ؟ »

قال : « لاشىء به الا انه اخرس وقد ولد كذلك ، وهو اعقل

منى ومنك - لاتؤاخذنى يابنى - واشد وداعة من الحمل ، واسلم

طوية من طفل رضيع . . . »

قلت : « ولكنى لا اعلم انهم يصطادون العقلاء من الطريق

ليدخلوهم مستشفى المجازيب . » فصاح بى : « انهم يفعلون

الآن . . . »

وعاد الى مكانه لحظات ثم استأنف يقول :

« اسكن فى بيت تاجر من ذوى المال والنفوذ ، وقد بدا له

منذ نشبت الحرب وارتفعت اجور المساكن ان يخرجنى من

مسكنى غصبا ليتاجر به فى سوق المساكن السوداء ، فأخذ

تارة يقطع الماء عنى ، او يأمسر البواب ان يتحرضن بولدى ، او

يأمر اولاده ان يسخروا من آفة لآخرس المسكين ، او يفرى

خدمه به ، او بى ، او بشرفة البيت يلقون فيها اقدارهم كلما

وجدوا بها ثيابا منشورة ، او ضيوفا جالسين

« وضقت بالبیت وصاحبه ذرعا ، ولكنى لم اجد بيتا سواه
فأقمت على مضض ولا حيلة لى فى دفع هذا البلاء »

« ولما ايس المالك ابلغ البوليس عن ابنى انه مجنون ، وان فى
وجوده خطرا عليه وعلى اهله وولده وعلى سائر السكان . . »
قلت : « ولكن البوليس لا يفعل شيئا فى مثل هذه الامور الا ان
يحيل المشكو منه الى الطبيب ، وما اظن بينك وبين الطبيب
عداوة ، وما احسب ان تبلغ القسوة بطبيب ان يقحم عاقلا
على مستشفى المجاذيب ؟ »

وعض الرجل شفته حتى كاد يدميها وقال :
« ياسيدى لقد ذهبت الى الطبيب وعندى له مثل الذى
عندك من تقدير واكثر ، فسألته عما قرر ان يفعل ؟ قال : احيل
ابنك الى المستشفى ، وهو وحظه هناك ! . . قلت : ولكنه ليس
مجنونا ولا يعدو الامر ان يكون نكايه من عدو مغيظ . قال :
ليس هذا من شأنى وليس على الا ان احيله الى المستشفى ،
وهناك يفصلون فى امره اعاقل هو او مجنون ! » . .
قلت : - كان البوليس يستطيع ان يفعل ذلك دون حاجة اليك ،
وقد نصبك القانون حكما بين لجمهور والبوليس . قال : -
اذهب فاشتك ان شئت ! قلت : انما جئت شاكيا اليك فأعنى على
الظالمين . قال : وهو غاضب : انى لست قاضيا ، انى هنا
قنطرة ! . ثم تركنى وانصرف لغيرى من ذوى الحاجات .
واخذ الرجل بعد ان فرغ من حكايته يبكى ويلطم خديه ،
ويسألنى ويسائل من انضم اليه من الفضوليين : « الى من اذهب
الآن ، وقد بات حمائى وقضائى انفسهم فى صف اللصوص ؟ »
واخذنا نهون عليه ما به ، ورحت احده عن المستشفى ،
وان بها اطباء مختصين ، يميزون بين العاقل والمجنون ، وان ابنه
لا بد عائد اليه فى ايام ، ولكن الرجل استمر يلطم وينسوح
ويصيح : « ان ابنى ان دخل هذا المستشفى فلن يخرج منه
ولئن خرج ليخرجن مجنوننا ، فمن عاشر الحساد فلا بد ان
يكتوى بالنار . . وان اطباءهم انفسهم من طول ما عاشرنا
المجانين قد اصبحوا مجانين !! »

وتدخل شخص معهم من بين النظارة يبدو عليه انه فلاح متعلم، فقال له : « نحن يا عم في هذا الزمن كالسماك يأكل كباره الضفاد ، ويلتهم الاقوياء فيه لضعفاء ، وليس للقسوانين والشرائع على هذه المائدة من شأن . لا ما يكون من الشأن للعلقة والسكين بين الآكل والمأكول . . . فبلا تركت المسكن لصاحبه . واقفلت على نفسك هذا الباب الذي تعصف عليك منه الريح ؟ »

والتفص الرجل انتفاضة الغريق الذي يجد في اخر لحظة وسيلة للنجاة ، وشرق في عينيه غموء جديد ، وتركنا بغتة واخذ يركض وقد نسي عصاه . . .

وركضت من ورثه اسلمه لعصا ، فلم الحق به وحافظ رغم السن والضعف على ما بينى وبينه من بعد ، وظل يركض ولا يكل ، وانا الهث من التعب حتى تى «سوق الخواجات» ووجدته وهو يقبل قدم صاحب المتجر هناك ، ويستغفره ، ويتوب اليه ، وصاحب المتجر - وكانت تبدو عليه كل مظاهر الداخل الجديد في دنيا الثراء - سعيد باذلال خصمه ، ناظر الى من حوله من صغار موظفيه نظرات الزهو والتباهى والغرور

فلما شبع من زهوه ، انعم على الرجل بابتسامة ، وقال له من طرف لسانه : « اذن فقد آمنت ان الله حق . ؟ »

قال : « واشهد ان لا اله الا هو ، هو نعم المولى ونعم النصير » وبعد محادثتين قصيرتين بالتليفون طلب التاجر من الرجل ان يذهب الى مركز البوليس ليسترده ولده ، وعاد العبد الى تقبيل قدمى السيد من جديد

واسلمت للرجل عصاه ، وسألته وانا اسير معه : « ولكن أين ستسكن الآن ؟ »

قال : « فى اى مكان ولو على قارعة الطريق ، وحسبى انى استرددت ولدى والله لا ينسى احدا من عباده ، وعلى كل حال فلدى مهلة عشرة أيام ؟ »